غسان مراد

ذكاء الأدب أم ذكاء الآلة؟

نلاحظ في الآونة الأخيرة أنّ كثيرين اليوم يبالغون في الحديث عن تهديد الذكاء الاصطناعي للكتابة. فهل هذا لأنّهم ينظرون إلى الأدب على أنه صناعة حكايات فقط؟ أم لسبب آخر يتعلّق بأنّ كلّ من يعرف الضغط على "الماوس" ولمس الشاشة والهمس إليها أحيانًا بات خبيرًا في الكتابة وفي كلّ المجالات؟

وللوقوف عند هذا التحدّي وتبيان هذه الظاهرة، قام الروائي الفرنسي الحائز على جائزة غونكور "هيرفيه لو تيليه" بتجربة في مواجهة الذكاء الاصطناعي. مباراة يمكن تشبيهها بالمواجهة الشهيرة بين بطل العالم في الشطرنج "غاري كاسباروف" وحاسوب "ديب بلو" في بداية القرن الحادي والعشرين. هدفت تجربة "لو تيليه" إلى اختبار قدرة الآلة على كتابة نص أدبي ينافس كاتبًا معروفًا. في المحصّلة، أثارت نتائجها مخاوف واسعة حول مستقبل الكتابة. الكاتب نفسه كان منبهرًا من النتيجة، بالرغم من قوله إنّه لا يمكن أن نجد أي دار نشر تقبل بنشر هذه القصة.

انطلاقًا من ذلك، يبقى السؤال الأهم الذي يتعلّق بمعنى الكتابة نفسها. فإذا أردنا من الكتابة أن تُختزل في بناء حبكة متقنة وصياغة قصة مشوّقة، سيقدّم الذكاء الاصطناعي نسخة سريعة في هذا المجال، بفضل قدرته على تحليل كميّات ضخمة من النصوص، وإعادة إنتاج الأنماط السردية بكفاءة حاسوبية– إحصائيّة واحتماليّة.

الكتابة ليست مجرد سرد حكايا، فهي أبعد من ذلك بكثير، فالحكاية تشكّل مدخلًا إلى النص، فمن جهة، تتبين القيمة الأدبية في اللغة، وفي قدرة النص على تحريك ذهن القارئ من جهة أخرى، مما يدفعه إلى إعادة النظر في ذاته وفي العالم من حوله. فالكاتب ليس كالآلة ينفذ مخططًا جاهزًا بناءً على طلب معين،

لأنّه بكل بساطة ومن خلال فعل الكتابة، يكتشف معاني وأفكارًا لم تكن رؤيتها واضحة له قبل البدء بالكتابة.

على سيرة الرؤية، تبرز فكرة أساسية تتعلّق بالعلاقة بين الرؤية والرواية، فعلى الرغم من عدم وجود تقارب اشتقاقي وجذري مباشر بين الكلمتين في العربية، فإنّ العلاقة بينهما هي علاقة فكرية وأدبية – معرفية. وإذا كانت الرؤية تتمثّل في الطريقة التي يرى بها الكاتب العالم والإنسان والأحداث، فإنّ الرواية تمثّل الشكل السردي الذي تتجسّد فيه تلك الرؤية، وبذلك تصبح الرواية حاملة لرؤية خاصة للواقع. فعلى سبيل المثال، من الممكن لكاتبين أن يرويا الحدث نفسه، وسنرى أنّهما أنتجا روايتين مختلفتان تمامًا، لأنّ رؤية كلّ منهما تختلف عن رؤية الآخر، وهذا لحسن الحظّ، وإلا أصبحت نصوص الجميع متشابهة، وهذا يؤدي إلى ضياع التمايز الذي يشكل طبيعة الفكر البشري ورؤية كل فرد الخاصة إلى العالم، عالمه هو حتى ولو كان الواقع متشابهًا حقيقة.

انطلاقًا من ذلك، يمكن اعتبار تنبؤات نهاية الأدب متسرّعة نسبيًّا، إذ إنّ التحدي الأكبر يكمن في كيفية مواجهة صناعة ثقافيّة كاملة اعتادت التعامل مع الكتابة على أنّها إنتاج منظّم لحكايات قابلة للاستهلاك السريع. يكفي النظر إلى نسبة كبيرة من الأعمال المعروضة على شاشات "نتفليكس" و"شاهد" وغيرها من المنصات لفهم هذه الآلية. فالمشاهد يواجه باستمرار القصص نفسها بأسماء مختلفة، مرتكزة بصورة شبه مستنسخة في بطل مأزوم، وجريمة غامضة، وقصة حبّ متعثّرة، مصحوبة بصراع عائلي متوقّع. والسبب أنّ جميعها تعتمد على شخصيات مصنوعة وفق قوالب نمطيّة شائعة، يكاد المشاهد يتوقّع النهاية والحبكة من الكلمات الأولى، فتضيع اللحظة التي تدفعه إلى الانتظار من أجل اكتشاف المفاجأة التي تشكّل اللمعة التي لم يفصح عنها الكاتب.

وبهذا، بات السرد مع الوقت في حالة تحوّل إلى وصفات ناجحة ومفبركة يُعاد تدويرها لأنّها تضمن نسبة مشاهدة مرتفعة، وهذا ما أدى إلى تراجع التعقيدات الإنسانية والأسئلة الوجودية والبحث اللغوي لمصلحة التشويق السريع والوضوح المباشر الذي يتطلّبه جمهور اعتاد ثقافة التمرير. وبذلك تزداد مظاهر التبسيط والتفاهة والتشابه، إذ إنّنا أحيانًا يصبح من الصعب علينا التمييز بين عمل وآخر إلّا من خلال بعض التفاصيل السطحيّة.

وفي العودة إلى التخوّف من ضياع الأدب من الممكن تشبيه ما يجري اليوم من خلال تجربة الكاميرا في القرن التاسع عشر؛ فعند ظهور التصوير الفوتوغرافي، اعتقد كثيرون بأنّ الرسم سيفقد وظيفته وينتهي دوره، لأنّ الكاميرا أصبحت قادرة على نقل الواقع بدرجة من الدقّة لم تُتَح له، ولكنّ الوقائع اثبت غير ذلك. فالرسم لم يختف، ووجد طريقه الخاص من خلال ابتعاده تدريجيًا عن مهمّة نقل الصورة كما هي، ومن هنا خرجت مدارس الفن المتعدّدة.

وعليه، إنّ ما حدث مع الرسم يطرح سؤالًا مشابهًا حول الكتابة والأدبيّة. فانطلاقًا من أنّ الذكاء الاصطناعي قادر على إنتاج المزيد من النصوص النمطيّة والقصص الجاهزة، تمامًا كما أصبحت الكاميرا قادرة على إنتاج الصورة الواقعية بدقّة تفوق قدرة الرسام. من الجائز القول أنّ النقاش الحقيقي لم يعد متعلّقًا بقدرة الآلة على كتابة قصة، وسرد رواية، وإنّما بطبيعة الكتابة التي يمكن للآلة أن تحاكيها.

ولكن، ما يثير القلق هو أن جزءًا واسعًا من الإنتاج الروائي والدرامي المعاصر أصبح متشابهًا إلى درجة تسمح للخوارزميات باستنساخه. فنجاح الذكاء الاصطناعي في تقليد هذه الأعمال يكشف أزمة التكرار التي أصابتها أكثر مما يكشف فهمًا حقيقيًا للأدب. وتزداد المفارقة عندما نلاحظ أنّ عددًا متزايدًا من الكتّاب بات يكتب وفي ذهنه شروط السوق، ومتطلّبات الجوائز، ومعايير لجان التحكيم قبل التفكير في ضرورات الكتابة نفسها. على الرغم من أنّ شركات الذكاء الاصطناعي تسوّق لما تولّده برمجياتها على أنّه إبداع، تعتمد هذه الأنظمة فعليًا على إعادة تركيب مواد موجودة سلفًا. لذا، فإن استنساخ الآلة للنصوص لا يُثبت

عبقريتَها، وهذا ما يطرح تساؤلًا جوهريًا حول فرادة النص البشري المقلَّد في زمن تتكاثر فيه القوالب والأنماط الجاهزة، وثقافة "الترينـد" التي تقيس القيمة بعدد المشاهدات. فكلما ازداد النص خضوعًا لهذه الوصفات، ازدادت قابليته للاستنساخ. وأخيرًا، فإنّ السؤال الأهم يبقى معلّقًا: ما الذي جعل قسمًا كبيرًا من الكتابة المعاصرة قابلًا للاستخراج وإعادة التركيب بهذه السهولة؟ وهل تكمن المشكلة في قدرات الآلة، أو في تحوّل جزء من الإنتاج الثقافي إلى أنماط مستنسخة؟

انطلاقًا من ذلك، يضمّ هذا العدد مجموعة مقاربات، ويطرح أسئلة تتعلق بالأدب واللغة والثقافة من زوايا متعدّدة، في محاولة تعكس تداخل المجالات البحثية في العلوم الإنسانية مع التحولات الرقميّة.

وتتنوّع موضوعات هذا العدد بين دراسات لغوية وأدبية ورقميّة، ودراسات في الترجمة، إذ تتناول إحدى الدراسات واقع مترجمي المؤتمرات السعوديين في اللغات الأقلّ تمثيلًا، من خلال بحث الفجوة بين التأهيل الأكاديمي والاعتماد المهني ومتطلّبات سوق العمل في اللغتين التركية والإسبانية. وفي حقل الدراسات السرديّة، يقدّم بحث قراءة تحليليّة للغة السرد عند مهى جرجور في قصة «امرأة المابين»، كاشفًا دور الصياغة اللغوية في بناء الحدث والشخصيّات وتشكيل الدلالة، وفق مقاربات لسانية وأسلوبيّة سرديّة.

كما يعالج بحث آخر التحوّلات التي يشهدها الحقل الأدبي المعاصر في العصر الرقمي، من خلال تتبّع أثر رقمنة الأعمال والأدب الرقمي والذكاء الاصطناعي التوليدي في أنماط الإنتاج والتداول والشرعية الأدبيّة.

وفي مجال تعليم اللغات، تستعرض إحدى المراجعات الدراسات التجريبيّة المتعلّقة بأثر السرد القصصي الرقمي في تنمية الكفاءة الشفوية والدافعيّة لدى متعلمي اللغة الإنجليزية، مع إبراز دور التعلّم التجريبيّ بوصفه إطارًا نظريًا داعمًا لهذا التوظيف.

ويضم العدد كذلك دراسة في نصوص الطلاب تتقصّى تجلّيات الفكر الوجودي في روايتي «بعد العاصفة» و«قلق» لجميل جبر، مبرزة قدرة الرواية على استيعاب أسئلة الإنسان المعاصر المرتبطة بالحرية والمعنى والاغتراب.

وتتناول مراجعة أخرى العلاقة بين الفقد والحداد وكتابة اليوميات الشخصيّة، من خلال بحث الكيفية التي يتحوّل بها الفقد إلى خطاب ذاتي ذي بُعد أدبي، ويبيّن إسهام الكتابة في تنظيم تجربة الغياب واستيعابها. ويُختتم العدد بدراسة نقدية لرواية «السيدة دالاوي» لفرجينيا وولف، تحلّل أنماط العلاقات الزوجية وأعباء الرعاية غير الرسميّة في ضوء التفاعل بين الطبقة الاجتماعية والنوع الاجتماعي، مستندة إلى مقاربات معاصرة في دراسات الرعاية والتحليل الأدبيّ.